زاهية او ضحيّة الأزياء (المودا)

رواية تاريخيّة بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

١ على فراش الوجع

اخبر الثقة احد رجال الاكليروس المتجرين قال : دُعيتُ في منتصف ليلةٍ من شتاء سنة ١٩٢٠ وانا خادم رعيّة في بعض احياء بيروت لأعود فتاةً قيل لي انها مصابة بداء عياء لا ترضى بعلاج وتأبى كلّ تعزيةٍ قاطعةً الامل من الحياة

فنهضتُ مسرعاً وصليت الى الله ليرشدني الى تدبير هذه النفس وسلوانها . ثمّ سرتُ الى حيث دعاني الدليل فدخلتُ حيًّا ذا لِيّاتٍ ومعارج حتى بلغت دارًا في وسط حديقةٍ صغيرة بازائها بيت ذو طابقين كانت المريضة في طابقهِ الاعلى

فصعدتُ اليهِ واذا امامي غرفتان متوازيتان كانت الفتاة في غرفة اليمين . فلمّا دخلت بابها الواطئ وجدتُ المكان مظلماً فاسد الهواء وفي زاويةٍ فتاةً تناهز العشرين من عمرها مضجعة على فراشٍ بالٍ ممدود على الواح بسيطة لاصقة بالارض وحولها بعض النساء من معارفها . فتقدّمت اليها قليلًا فوجدتها شاحبة اللون غائرة العينين في حجاجيها يستر جسمها دثارٌ خفيف بالٍ وكان تلوح من ملامحها علامات الضجر والسأم وقد انهكتها الحمّى فهي تئنّ وتشكو حالها وكاد السعال يخنقها فيُرى صدرُها في صعود وهبوط كأنّهُ منفاخ الكير

فلما وقع نظرُها عليَّ بدت في وجهها امارات الاشمئزاز كانها لقيت شخصاً مكروهاً فحوّلت نظرها الى الحائط تتلافى تبصرني

فسألتُ عن احوالها فاجابت احدى النساء انها غريبة واتت المدينة منذ ثلثة اشهر تدور في البلد فاجّرت هذه الغرفة وكثيرًا ما تغيب عنها حتى أُصيبت بدائها منذ خمسة عشر يوماً

فتقرّبت منها وداعبتها باسمها بكل لطف : فلم تُجب إلّا بالتغور والتدمدم فسألتها أهي في حاجة الى شيء او يمكنني ان اخدمها خدمةً ما روحية او جسدية؟ فقالت : لا استُ محتاجة الى شيء فدعني وشأني

— ما لكِ تتفرجين هكذا؟ قد اتيتكِ بصفة صديق. انا كاهن الله لا اريد الّا خيرك. ألكِ احد من اهلكِ لأعلمهُ بامركِ ؟ وهل ابوكِ حيّ ؟

قالت: لا قد مات وانا صغيرة السن

— وامك ان كانت حيّة تُرزق انا اكتب اليها

— لا تذكر لي يا ابنتي تلك الام بل تلك العجوز بل الذئبة المستقبحة فانها هي سبب كل شقائي

قلتُ: او تنسين انها هي علّة وجودك ؟

— بل قل انها علّة تعاستي. جازاها الله على سوء صنيعها معي

سكتُّ ورأيت من هياج المريضة ما خفتُ ان يتفاقم ويزيدها ألماً وعرفت انّ لها قصّة مزعجة تحيك في صدرها وتنخر قلبها فدعوتها الى السكينة والهدوء. ثمّ جثوت على ركبتي لاصلّي لاجلها وبقيتُ حيناً التمس من الله أن يحنّ على هذه الفتاة ويمنحها الشفاء. وعلى الاقلّ راحة الضمير وطمأنينة القلب

فلمّا رأتني جاثياً على الحضيض رقّ قلبها وصرخت: ما لي اراك يا ابت خررت ع[illegible]

قلتُ: اني اصلي لاجلكِ واطلب من الله ان يعيد لكِ توازن[illegible]لبكِ

قالت: قد فقدتها جميعاً ولا امل لي بالحصول عليها. وقد استعذبت عيش الحياة أريد إلّا ان ينقطع حبلها لانجو من بلائها

— بل اني اؤمّل انا بان تحظَي بها كليها ان شاء الله. واراكِ في هذه الغرفة تحتاجين الى ادوية وخدم لا يمكنكِ ان تنالها في هذه العزلة فسأسعى لدى رئيسة الراهبات في المستشفى الكبير كي تقبلكِ لوجه الله في جملة المريضات

— اني اشكركَ يا ابتِ على لطفك لكني افضّل ان ابقى هنا فاودّع عما قليل هذه الحياة التي ما ذقتُ فيها طعم السلام

قلت: ثقي يا ابنتي فلعلّ الله دعاني اليكِ لاكون لكِ رسول هذا السلام المفقود. فسلّمتُ عليها وخرجت متأثراً من حالة تلك الآنسة المسكينة طالباً من الله ان يضمد جراح قلبها ببرهم الايمان والرجاء

٢ في المستشفى

ولما كان صباح النهار اسرعتُ الى المستشفى وواجهت رئيسته الجليلة فأخبرتها

بحالة الفتاة فشفقت عليها واذ كانت اسرَّة المرضى في الحجرة الكبرى كلُّها مشغولة ارادت ان تخصَّها بغرفة صغيرة لتُعنى بامرها

عدتُ الى زاهية في عصر النهار فوجدتها مضطربة كاسفة البال فلم ازل الحَّ عليها بالخروج من منزلها حتى اقنعتها بان تُنقل في عربة الى المستشفى حيث استقبلتها الرئيسة والراهبات بما يعرفنَ الجميع من لطفهنَّ

***

كانت الايام الاولى التي قضتها زاهية في المستشفى مختصة بفحص مرضها وتشخيص دائها. فوجد الطبيب انَّ تلك المسكينة قد بلغت من الهُزال وضعف القوى ونوبات الحمّى ما يُرتاب في شفائها واملّها تبارح الحياة بعد زمن قليل

فكنتُ ازورها من وقتٍ الى آخر لاستخبر عن احوالها وادخل فاراها قلقةً لا يطمئن لها بال فترتاح الى منظري وكنتُ اجتهد بان اوحي اليها بالافكار الدينية لأنزع من قلبها شوكة ندمه ثمَّ انشدتُها الله ان تفتح قلبها لرحمته تعالى فتكشف مكنونات صدرها لاحد الاطباء الروحيين فقلتُ لها: كأني اراك تكتمين في صدرك داء دفيناً لعلَّهُ هو الذي يكلمُ قلبك ويفقدك ما تحتاجين اليه من الهدوء لنيل عافيتك

— أجل يا ابتِ إلّا انَّ قصتي طويلة مخجلة ما كنت لاكشفها لانسان لولا ان لطفك وحنانك عليَّ يدفعاني الى أن أقرَّ بها علانيةً فتكون قصَّتي عبرةً لغيري من الفتيات الجاهلات

قلتُ: او ترضين ان يعلم بها غيري؟

قالت: نعم. فلعلهنَّ اذا رأين عاقبة ضلالي يرتشدن بمثلي فينتج من الشرّ بعض الخير واكفّر عن ذنوبي ويرحمني الله اذا صلّين لاجلي

قلت: حسبكِ اليوم ما حدّثتِ بهِ فاني اخاف عليك ان يزعجك طول الحديث فان شاء الله تتزعزعين عن قلبك هذه الهموم في يوم آخر. ثمَّ ودَّعتها بعد ان اوصيتها ان ترفع نظرها الى الله فتطلب من مراحمهِ ان يغفر لها ما فرط منها فتجلب عليها بتواضعها رحمتهُ تعالى الذي لا يُريد سوى رجوع الخطأة الى جادَّة الخير والتوبة النصوح

(لها تابع)